الخيالات الباطلة
والأوهام الفاسدة

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش بوزارة المعارف العمومية

حينما تطغى الحياة بأمواجها العنيفة، وتشتد بتياراتها الجارفة، يحاول المرء الهروب منها، والتخلص من متاعبها وآلامها، فيجلس أحيانا جلسة هادئة فى مكان منعزل بعيد عن الضوضاء والجلبة، ويختلس جانبا من أوقات فراغه ليناجى نفسه بأشهى الأحاديث وأعذب الامانى والأحلام، وليرضى لذته العقلية بالعكوف على ألوان من التمنيات، وأنواع من الامال، فتراه تحسبه صامتا وهو فى الحقيقة ناطق متكلم، وتظنه ساكنا، وهو فى الواقع متحرك وصدره جياش بالخواطر المتواردة، والأفكار المتواثبة.

يغمض عينيه إغماضة خفيفة حتى يداعبها الكرى فى رفق ولطف، ثم يسترسل فى تفكيراته الحرة التى لا يحدها حد، ولا يقيدها قيد، ويتمادى فى خيالاته الطليقة التى لا تخضع لإرادة، ولا تستمع الى قانون أو نظام. فتجىء الفكرة تتبعها الفكرة، والخاطرة تسابقها الخاطرة، ويؤلف الخيال من كل ذلك صورا براقة لماعة يتكون من مجموعها منظر ساحر عجيب يجمع بين عواطف الماضى ولذائذ الحاضر والمستقبل، فلا يتمالك الانسان أن يتأملها تأمل العاشق الولهان، وأن ينظر إليها بعين خياله ليتناسى بها الحقيقة المرة والماضى المؤلم، ويضع منها تصميما لمستقبل خير من مستقبله، وحياة أبهى من حياته. ويقنع بهذه الصور الخيالية وإن كانت أحلاما بعيدة كل البعد عن الواقع الملموس، ويكتفى بهذه الروائع الذهنية وإن كانت من نسجه ومن عمل خياله ولا تتطابق مع الحياة الواقعه.

وأكثر ما يكون هذا النوع من الأحلام عند ما يصطدم المرء بصخرة الواقع ويجد أنها لا تتكسر ولا تلين، ويجد الدنيا قاسية جافة لا رحمة فيها ولا شفقة، ويجد كل شىء فى الوجود عابسا صاخبا، فيفر من كل أولئك فرار الجبان المهزوم ملتجئا إلى هذه الأحلام اللذيذة التى تسرى عنه همومه وكروبه، وتنسيه آلام الحياة وما فيها. وما أشبه هذه الأحلام بالدمعة المسكوبة يرسلها الحزين فينسى حزنه، والمريض فينسى مرضه، والفقير فيتأسى.

فمن رزئ فى ماله بخسارة فادحة، وضاقت به سبل العيش وجد فى طبيعة نفسه ما يسليه بعض التسلية، وينسيه ولو فى فترة قصيرة آلام نكبته، ومرارة خسارته: تأتيه "أحلام اليقظة" فينشط خياله نشاطا عظيما ويرى رواية أشبه ما يكون برواية الخيالة "السينما" تتهافت فيها الصور الواضحة عن الكنوز والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. وإنه بهذه الصور الخيالية يحلق فى أجواء بعيدة عن أجواء

الحياة ، ويسبح فى عالم لا يرتبط بعالم الحقيقة . ويطيب له أن يحيا حياة خيالية يخلقها كما يشاء، ويصورها كما يريد ويشتهى . هذه الأمانى الحلوة المعسولة التى يستطيبها المرء فى أيام محنته وبلائه ليتخلص بها من عذابه وشقائه، ويسترسل فى التفكير فيها استرسالا غير مقطوع يسمى أحلام اليقظة . وبها يبنى قصورا فى الهواء، ويتخيل أن السراب هو الماء، ويصوّر لنفسه حياة طيبة مليئة بالطرائف واللطائف ويعيش فى دنيا لا نظير لها ولا مثل ، فيجد اللذة الخيالية غلبة على نفسه، تسليه فى يومه وفى غده، وتنسيه ما كان من ظلام أمسه .

وهذه الأحلام مقبولة مستساغة ما دام المرء لم يسترسل فيها هذا الاسترسال الذى يقصيه بعيد عن الواقع، ذلك لأن التمادى فيه خطأ أى خطأ. يجعل صاحبه أليف الراحة والكسل، ضعيف الإرادة والفكر، قليل العمل . وهذا مرض نفسانى تجب معالجته قبل أن يستفحل داؤه، ويستعصى برؤه وشفاؤه، ويجعل صاحبه حليف النوم والأمانى .

ذلك لأن الشخص الذى تغلب عليه نزعة الأمانى الكاذبة. والأحلام الباطلة. يتجه اتجاها طائشا . ويطمع فى غير مطمع ، ويرعى فى صحراء مقفرة لا تنبت شيئا فلا ينال مأربا ، ولا يحقق غرضا، ولا يعمل عملا وهذا هو المرض بعينه .

وكذلك من الأمراض النفسية : الأوهام الباطلة الخيالية التى تنشأ من الرعب والخوف الشديد ، ومن الحذر وتوقع الخطر ، ومن القلق المستمر ، ومن التشاؤم فى الحياة . فهذه آفات تدخل على القلوب كما تدخل السموم فى الدماء فتفسدها وتعطل وظائفها ، وتجعل العقل فى اضطراب وفوضى ، وتولد فى النفس الأوهام المزعجة . هذه الأوهام تصور الحياة بصورة بشعة ، فيتخيل المرء أن الأرض حزينة ، وأن السماء كئيبة ، والفضاء ضيق ، وأن النور ظلام ، وأن الحياة موت . ويتوهم الباطل حقا، والحق باطلا . فإن قام ففى تثاقل ، وإن مشى ففى اضطراب وضعف ، وإن جرى ففى غير قوة وبدون رغبة . صوته ضعيف خافت ، ورأسه مائل ماتو ، يؤثر أن يجلس منفردا غارقا فى نفسه مهما يكن حمله ثقيلا ، وهمه طويلا . وقد يلقى هذا المسكين من ذوى قرابته ورؤسائه وجيرانه غلظة وقسوة وشدة وجفوة، فيزداد مرضه النفسى ويتوهم أن الكون بما فيه يناوئه ويعاديه . ويتخيل أن العالم كله يتربص به الدوائر. ومن ثم تشتد مخاوفه ، ويزداد جبنه ، ويسوء تفكيره ، وتظلم الدنيا أمام ناظريه . وهذا شقاء ليس بعده شقاء . فينقلب متشائما لا يثق بأحد ، وموسوسا لا يطمئن الى أحد ثم ينقطع عن مجتمعه انقطاع اليائس المحسور . وقد تحمد نشاطه، وفترت همته ، وضعفت صحته ، واضطربت أعصابه وساءت حاله ، وصار كالريشة تلعب بها الريح وتسيرها كيفما تريد . فلا يحسن قولا ولا يتقن عملا ؛ لأنه شارد الفكر مسلوب الفؤاد وأى مرض نفسى أعظم خطرا وأبلغ ضررا من هذا المرض الذى يؤدّى الى الضرر الخلقى والنقص العقلى ، ويقتل الحيوية فى الجسم ، وما سببه فى الأصل الا الخيال الوهمى.

فإن كانت أحلام اليقظة مدعاة الى التفاؤل بكل شىء فى الحياة فالركون اليها باستمرار يجعل المرء نائما حالما ذاهلا عما فى الوجود ، ولا يفيق من نومه وذهوله إلا حينما تتبدّد أحلامه أمام الحقيقة الواقعة كما تتبدّد السحابة أمام حرارة الشمس المحرقة ، فتترك وراءها

حسرات لاذعة باقية . وكذلك الركون الى الأوهام يؤدى الى التشاؤم بسبب الهواجس المرعبة التى تحتل القلب فتذيبه فرقا ، وتحتل النفس فتملأ فراغها بؤسا وشؤما . وكلتا الحالتين تجعلان المرء غير صالح للحياة التى تتطلب خيالا مضبوطا ، وفكرا منظما ، و إرادة قوية ، واعترافا بالواقع ، وصبرا لما يأتى به الزمان من أحداث وكوارث : فالتفاؤل الزائد عن حده شر لأنه يغرى الانسان بأودية فيحاء خضراء لا وجود لها ، والتشاؤم شر كذلك لأنه يلقى به فى أودية ضيقة مقفرة لا وجود لها الا فى الخيال الوهمى . وخير للمرء أن يلتزم الحد الوسط فلا يتمادى فى تفاؤله ، ولا فى تشاؤمه ، وأن يكون عمليا متصلا بالحياة يفكر جديا فيما يمكن تحقيقه والوصول اليه ليكون أمامه هدف يسعى له ، وغرض يرمى الى إصابته . وكلما وصل الى غاية قريبة اتخذ سبيله الى غاية أخرى حتى اذا ما أدركها امتد أمله الى غاية بعيدة وغاية أبعد وهكذا ما دام حيا معافى سليما . فأمامه ميدان العمل فسيح الأرجاء ، وهو لا يزال يدأب مستمرا فى الكد والكدح ، وكلما قارب مرحلة وجد أمامه مرحلة أخرى .

إنه بهذا السير الحازم يختط لنفسه مثلا أعلى يعمل على تحقيقه . وما المثل الأعلى إلا الصورة الخيالية التى تحتاج فى بلوغها أو القرب منها إلى الدأب والمثابرة والتفكير فى شتى الأسباب ومختلف الأساليب وتسديد الخطوات نحو الأهداف المتنوعة التى توصل اليه ، فلا تتشعب عليه المسالك ولا تختلف به الطرق كما تشعبت على الحائرين والواهمين .

وإن الجهل بأسرار الطبيعة وبحقائق الأشياء من العوامل المؤدية الى الخيالات الفاسدة والأوهام الباطلة ، فيتوهم امرؤ الظواهر الكونية توهما باطلا ، ويفسرها تفسيرا لا يتفق مع الواقع ، ويكون لنفسه معتقدات فيها لا نصيب لها من الحق : كمظاهر الرعد والبرق والسحاب والمطر والظلام والدورة الفلكية ، وهذه المظاهر لم يفهمها الإنسان القديم ولم يدرك نشأتها فخافها ، وتخيل فيها ما تخيل ، ونسب اليه ما نسب ، واخترع لها الخرافات والأساطير والأباطيل ، نتيجة لسوء الفهم والتأويل ، ومن الغريب الطريف أن خيال الإنسان يخترع الأساطير اختراعا ثم يأتى من بعده قوم يؤمنون بها ، ويعتقدون فيها كأنها هى من الحقائق المسلم بها . ولكن العلم الحديث قد كشف القناع عن كثير من أسرار الطبيعة فأدركها الإنسان إدراكا صحيحا مبنيا على التفكر والتعقل ، فبطلت الخرافات التى كانت تسيطر على العالم بسبب الخيالات الفاسدة .

فالوهم والخوف والجهل وبساطة العقل قد دفعت الهمج فى أيام الجهالة الأولى أن يعبدوا الشجر والمدر والحجر والكواكب والبحار ، لأنهم توهموا أن فيها أرواحا وآلهة ، ونسجوا لها الأساطير . وإن الجهالة تدفعهم الآن الى تخيل الأباطيل ، واعتقاد أنها صحيحة صادقة . وويل للجهلاء مما

محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش بوزارة المعارف